الفصل الرابع

في

الأمل والمستقبل

obeikandl.com

obeikandl.com

الخطاب الإسلامي والمستقبل ضرورة لا ترف

حين نتأمل مسيرة العقل المسلم، وتجربته الحضارية الفريدة، نجد أنه قد توالت عليه عبر عقود عدة أزماتٌ جسيمة، وتآمرت عليه قوىٰ مختلفة من الشرق والغرب، وحورب بوسائل متنوعة: سياسية، وثقافية، واجتماعية، واقتصادية.. حتىٰ فَقَدَ بعضًا من مناعته الذاتية، وتأثر - إلىٰ حد ما- بمحاولات التشكيك في ثوابته وجذوره، وانغلق علىٰ ذاته بعد أن كان يمدّ جسور الحوار مع سائر الحضارات، ويتفاعل معها دون ذوبان أو جمود..

ومن ثم، انشغل العقل المسلم بحاضره وتاه فيه، حتىٰ استغرقته همومه ومشاكله، وصار عاجزًا عن استشراف آفاق المستقبل، والتطلع إلىٰ الغد المجهول، بل في بعض الأحيان لم يكن قادرًا علىٰ الإحاطة بحاضره، واستيعاب خرائطه وملامحه، ومعرفة جزئياته وتفاصيله .. فبدا حال العقل المسلم المعاصر - للأسف- كمن يعيش في برج عاجي بعيدًا عن واقع الناس واهتماماتهم!

ولا يظنن أحد أن الحديث عن ضرورة استشراف المستقبل، وإعداد العدة له، هو مما يمكن التسامح فيه، والتغافل عنه... فإن تجارب التاريخ تؤكد لنا أن من لا يحسن التخطيط لما هو آتٍ، ولا يحتاط لكافة الاحتمالات وتقلّب الأمور.. يكون معرّضًا دائمًا لردّة الفعل العشوائية، وبالتالي يكون مُعرضًا للتأثر بمخططات الآخرين ومؤامراتهم، ولن يستطيع الأخذ بزمام الأمور، وامتلاك المبادأة التي تمكنه من تجنب تكرار أخطائه، ومن الإفلات مما يُراد به ويُحاك ضده.

وللمرء أن يندهش حين يعلم أن الدراسات التي تُعنىٰ باستشراف المستقبل، واستكناه حقائقه، قد تطورت في الدول الغربية، وصارت عِلمًا مكتمل الأركان والشروط والأدوات، يسمىٰ «**علم المستقبليات**»، تقوم عليه مراكز أبحاث وجامعات تضم في تشكيلاتها تخصصات علمية مختلفة، بما يحقق تكامل المعارف وتساندها،

ويوفر رؤية كلية واعية... في حين أن الاهتمام بهذا العلم لم يعرف طريقه بعد إلىٰ جامعاتنا العربية.. وتلك مفارقة لها رمزيتها، ودلالتها، ولها أيضًا تبعاتها.

لا تكن أسير الزمن والجغرافيا

إن المتتبع للخطاب الإسلامي - قرآنًا وسنةً- يتأكد له أن هذا الخطاب منذ بدايته لم يُعْنَ فقط باللحظة الراهنة، وكيفية التعامل معها، بل عُني - إضافة إلىٰ هذا- بتوجيه الأنظار نحو المستقبل، وحثِّ الهمم لاستشراف الغد المجهول... فمع تنزّل القرآن الكريم كان الحديث المتكرر، والتنبيه الدائم، إلىٰ الدار الآخرة، وما بعد الموت من جنة أو نار، وتأثير ذلك علىٰ حاضر الإنسان في الحياة الدنيا.

ليس هذا فحسب، بل تحدث القرآن عن الصراع بين الفرس والروم وطبيعة المواجهة بينهما، وأخبر عن انتصار الروم في بضع سنين، قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ (الروم). وفي هذا توجيهٌ للمسلمين لمدِّ أبصارهم خارج حدودهم الجغرافية- وكذلك الزمنية- ومتابعة ما يجري فيها من تطورات وانعكاسات علىٰ علاقة المسلمين مع الآخرين، وعلىٰ سير الدعوة الإسلامية في الداخل والخارج.

وجاءت **قصة يوسف** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، حين تولىٰ خزانة مصر ووضع الخطط لمواجهة المجاعة والقحط.. تدريبًا عمليًا علىٰ مواجهة الأخطار التي تلوح في الأفق، وكيفية التصدي للأزمات الاقتصادية والمجاعات، وتنفيذ الخطط الخمسية والعشرية .. وضرورة الاعتماد في ذلك علىٰ الحقائق والأرقام، والعمل الجاد المتواصل، دون تقاعس أو تواكل، وأيضًا دون تهويل أو تهوين..

وهذا يؤكد- من ناحية أخرىٰ- أن الخطاب الإسلامي لا ينعزل عن هموم الناس ومشاكلهم، ولا يُعنىٰ فقط بالجانب التعبدي، ولا يرضىٰ أن يعتكف المسلم في زاوية من المسجد تاركًا حياته ومعاشه ، بل الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعًا.. يتفاعل مع الحياة ولا يخاصمها.. ويتقاطع معها ولا ينعزل عنها.. يأمر

المسلم بعمارة الأرض ويجعل من ذلك دينًا يتعبد به المسلمُ ربَّه.

وقد تأكد هذا المعنىٰ - شمولية الإسلام - في مواضع كثيرة من القرآن؛ يكفي أن نذكر في هذا المقام أن الله سبحانه قَرَنَ في آية واحدة بين عبادته والاستغفار والتوبة وبين عمارة الأرض، فقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ (هود).

كما جاءت **أحاديث النبي** ﷺ، **التي تُبشِّر بانتصار الإسلام**، وأنه سيبلغ ما بلغ الليل والنهار، وما من بيت مدر ولا وبر - أي: بيوت المدن، وبيوت البادية - إلا وسيدخله الإسلام، وأن المسلمين سينتصرون علىٰ اليهود في آخر الزمان، بعد قتال شديد يختبئ فيه اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي ورائي تعال فاقتله.. وكذلك **أحاديث أمارات اقتراب يوم القيامة، والنذر الدّالة عليه**، مثل: تبدل الأحوال، وانقلاب الموازين، وولادة الأمَة ربتها، وشيوع الفواحش، وانتشار الظلم، وضياع الأمانة..

جاءت هذه الأحاديث لتجعل أمام العقل المسلم صورة حاضرة لاحتمالات المستقبل، ومآلات الأحوال؛ ولتحثه علىٰ اجتناب ما يمكن أن يتسبب له في أزمات وعثرات، وتدفعه أيضًا لما يتعين عليه فعله لمواجهتها ودفع ضررها.

العقلية «الاتكالية» حبيسةُ الماضي:

لقد مرّت أمتنا الإسلامية بالكثير من الأزمات المتلاحقة والمتشابهة ، بدءًا من الفتنة بين الصحابة رضي الله عنهم جميعًا، والصراع الحاد بين الأمويين والعباسيين، وما تأسس عليه من الاختلاف المذهبي البغيض، مرورًا بسقوط الخلافة الإسلامية في بغداد، ثم زوال دولة الأندلس بعد صراع الطوائف، ودسائس الملك العضوض، حتىٰ سقطت الخلافة العثمانية، وتحولت الدولة الإسلامية إلىٰ دويلات مفككة، تتناحر فيما بينها ولا تقوىٰ أمام الأخطار الخارجية المتربصة، التي تستهدفهم جميعًا دون استثناء..

وغير خافٍ علىٰ أحد أن السقوط الثاني للخلافة الإسلامية كان مقدمة لما نعانيه

اليوم، من تفرّق الكلمة، وتشتت الصّف، وضياع الهوية، والاستجابة لمحاولات التغريب والعَلمَنة، وذوبان الشخصية المسلمة في موجات الحداثة والعولمة.

ومع كل هذه الأزمات، التي أخذ بعضها بأيدي بعض، ونقلتنا من سيئ إلىٰ أسوأ، لم نجد مَنْ يحسن دراستها، والوقوف علىٰ أسبابها، واستخلاص العبرة منها، بل غفلنا عن إدراك سنن الله الثابتة في نهوض الأمم وسقوطها، وسادت «**العقلية الاتكالية** »، العاجزة عن رؤية الأزمة في جذورها وأصولها، وانتشرت نظرية «**المؤامرة** »، التي ترمي بالمسئولية (الكاملة) علىٰ الآخرين دون توجيه النقد إلىٰ الذات، مع أن الضعف الذاتي - أو «القابلية للاستعمار » كما يسميه مالك بن نبي - يشكل العامل الأساسي لقبول التأثير من الآخرين، والتجاوب مع مؤامراتهم ومخططاتهم.

ولهذا كان القرآن حريصًا علىٰ لفت الأنظار إلىٰ أهمية (العامل الذاتي)، سواء في تحقيق النصر أو حدوث الهزيمة ، فقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ (آل عمران)، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ (الرعد: 11).

ولم يكن بمقدور هذه «العقلية الاتكالية» أن تتعاطىٰ بفهم وعمق مع ما يعتريها من نكبات، وما يصيبها من أزمات، حتىٰ تطمئن إلىٰ عدم الوقوع مرة ثانية في نفس الحفرة، ولا تُلدغ من جحر واحد مرتين [1]، بل عميت عن عبرة الأحداث، وتغافلت عن قراءة التاريخ، الذي من الممكن أن يتكرر إذا ما توافرت الدواعي والأسباب التي كانت من وراء حدوثه أول مرة.

وبذلك فقدَ العقلُ المسلم **أولَ شرط لازم لاستشراف المستقبل ، ألا وهو «حسن قراءة التاريخ»**، واستيعاب أحداثه، بما فيها من انتصارات وانكسارات، واستصحاب العبرة منهما للحاضر والمستقبل.

يقول الشيخ محمد الغزالي، رحمه الله: «**إننا لم نحسن دراسة ما أصابنا من هزائم**

---

(١) روىٰ أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين» (متفق عليه).

obeikandl.com

فادحة، وما أقمنا حواجز ضد تكرارها، ولا يزال ناس منا مشغولين بأنواع من المعرفة لا تضر عدوًا ولا تنفع صديقًا، وتيار الأحداث الزاخر يلطم الوجوه، ويطوي جماهير بعد أخرىٰ، ونحن لا نربط النتائج بأسبابها، وما فكرنا في دراسات ذكية جريئة لمعاصينا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولا أدري: لماذا الخشية أو لماذا الجمود؟ هل مستقبل أمة من مليار إنسان شيء هيِّن؟ هل النكسات التي عرت رسالتها غير جديرة بالتأمل!»(١).

ولذا كان من أعظم المسلم الخطاب الإسلامي المعاصر: أنه يستنفد طاقاته في التغني بأمجاد المسلمين، وحضارتهم، التي سادت الدنيا لعدة قرون، ونشرت العلم والمعرفة، وأرست قواعد المنهج التجريبي، الذي مهَّد لقيام الحضارة الغربية الحديثة بعد عصورها المتتابعة من الظلام والتخلف.. ولا يحاول أن يتخذ من أمجاد الماضي نقطة انطلاق، وعلامة يهتدي بها وسط أزماته الحالكة، **فهو عاجز عن مواجهة الحاضر بمشكلاته، فضلا عن التطلع للمستقبل بآماله، كما أنه غير قادر علىٰ مدِّ البصر خارج حدود الزمان والمكان**.. فالزمان والمكان يستوعبانه بدلاً من أن يستوعبهما هو، ويسخرهما للغاية التي من أجلها خلقه الله، واستخلفه في الأرض.

يقول **الأستاذ عمر عبيد حسنة**: «من إصابات العقل المسلم عدمُ استشراف آفاق المستقبل علىٰ ضوء الماضي والحاضر، وفهم الحركة التاريخية، ومراقبة مجراها، ومن ثم معرفة مصبها مستقبلًا. وأعتقد أنه لا يجوز الهروب من النظر إلىٰ المستقبل تحت عنوان (المستقبل بيد الله)... **فتعطيل النظر إلىٰ المستقبل، بعد أن أصبحت له دراساته، وعلومه، تحت شتىٰ الاعتذارات، ليس من الدين، بل هو إصابة للعقل، ومجافاة للدين»**(٢).

ثمة سبب آخر يكبّل العقل المسلم، ويقف دون قراءة «**استطلاعية**» لحركة التاريخ، هو أنه توجد عشرات القضايا «**المعلقة**»، التي لم يتم حسمها، أو تقريب

---

(١) مجلة «الأمة» القطرية، ص: 12، عدد 69، رمضان 1406هـ.

(٢) مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، ص: 107، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 1414هـ.

وجهات النظر حولها، ولا تزيدها الأيام إلا تعقيدًا وتشابكًا، الأمر الذي يهدد العقل المسلم بأن يظل دائرًا في دائرة مفرغة، وألا يواكب تجدد الحياة وتطورها. ولا مفرّ في هذا الصدد من الاعتراف بأن الطرح الإسلامي حول هذه القضايا لم يكن على مستوى التحدي الحضاري، بل إن بعض وجهات النظر الإسلامية حول قضية ما قد يصل إلى حدّ التناقض!

خذ مثلا، الموقف من المرأة ودورها السياسي والاجتماعي، أو قضية الديمقراطية ونظم الحكم المعاصرة، أو التعددية في الفكر والممارسة، أو حقوق الإنسان وضوابط الحرية والإبداع، أو الأقليات والتعدد الطائفي والعرقي، ودور ذلك في النسيج الاجتماعي للمجتمع المسلم، أو حوار الحضارات وكيفية التعامل مع العولمة وتجنب مخاطرها...

ستجد أن هذه القضايا وغيرها، برغم ما قُدِّم فيها من دراسات واجتهادات متميزة، إلا أن إيجاد ما يقارب الإجماع حولها، وتقديم مبادئ حاكمة في التعامل معها، لم يتبلور بعد بصورة مناسبة، تمكّن من الانطلاق إلى مرحلة أخرى من قضايا الفكر الإسلامي، وهموم الواقع المتجدد.

عقارب الساعة لا تتوقف..

إننا إذا كنا مَعنيين في «**تجديد الخطاب الإسلامي**» بتنقية التراث، وتهذيب ما به من آراء واجتهادات «**بشرية ش**» لا تتفق والخصائص العامة للإسلام، فإننا معنيون- كذلك- بمواجهة التحديات، واستشراف المستقبل ، حتى لا نقع في أسر اللحظة الراهنة، ونغرق في دوامة الحياة التي لا تتوقف.

أدري أن محاولة الحديث عن المستقبل، واستكشاف خرائطه، تعدّ نوعًا من «الترف الفكري» في ظل الواقع الذي يعجّ بمشاكل لا حصر لها .. وفي ظل العقليات التي ذهلت عن حاضرها، وفقدت الوعي بذاتها وإمكاناتها.. وفي أجواء الفتاوى التي تكبّل العقل المسلم، وتحاصره في دائرة ضيقة بعيدًا عن الفكر الإسلامي الرحب، وتعزله عن تيار الحياة المتدفق..

غير أنه لا مندوحة عن توجيه الأنظار نحو الغد، وانتزاع العقل المسلم مما يعكر عليه صفاءه ونقاءه، ولا بديل عن فتح آفاق جديدة أمامه من الفهم والفكر، وحثه دائمًا علىٰ التجديد والإبداع مع المحافظ علىٰ الأصول والثوابت، ودفعه للتواصل مع سائر الثقافات والحضارات مع التمسك بالخصائص الذاتية والهوية الإسلامية... وما ذلك علىٰ المؤمنين ببعيد.

إن أعظم ما في الحديث عن المستقبل، ولفت النظر إليه، أنه انتزاع للإنسان من وهدة اليأس والإحباط، مهما كان الواقع مشبعًا بالمثبطات .. كما أنه إيقاظ للهمم، وتفجير للطاقات الكامنة، وتحريك للنفوس الخاملة..

فهو ينادي هذه النفوس ويلحّ عليها: أن أسرعي الخطو.. وغذّي السير.. فعهد النوم قد مضىٰ.. والشمس تتحرك لا تنتظر القاعدين.. والكون لا يكفّ عن الدوران.. وعقارب الساعة أبدًا في حركة وانتظام.. وزمن البدائية والعشوائية لا محلَّ له من النجاح و«الإعراب»!

obeikandl.com

«صناعة الأمل» ضمانُ فاعليةِ الأمة

اعتدنا فيما يتعلق بالأمور المادية وظواهر الكون أن نسمع كلمة "الصناعة"، وأن نتحدث كثيرًا عن أهمية الصناعة في التطور الحضاري وتوفير مستوىٰ الرفاهية الذي يطمح إليه الكثيرون، بالإضافة إلىٰ تقسيم الصناعات إلىٰ صناعات ثقيلة، وأخرىٰ متوسطة، وثالثة خفيفة.

كما درجت بعض الكتابات علىٰ تقسيم مراحل التاريخ التي مرت بها البشرية، من حيث العمران والتطور المادي، إلىٰ المرحلة البدائية، ثم الزراعية، ثم الصناعية، ثم الدخول في عصر الذرة والفضاء والتكنولوجيا والتطور اللانهائي والمتسارع مما تشهده البشرية تقريبًا كل لحظة.

هذا كله نعرفه عن «الصناعة» في عالم المادة والأشياء.. لكننا علىٰ العكس من ذلك، قلَّما نستخدم كلمة «الصناعة» في عالم القيم والمفاهيم والأخلاق والتربية، علىٰ الرغم من أن تدعيمَ هذا العالَم- الذي يسميه مالك بن نبي «عالم الأفكار»- وتفعيلَه والوصول به إلىٰ درجة عالية من الحيوية والفاعلية للخروج من المأزق الحضاري، يحتاج إلىٰ جهد وتخطيط ودراسات وبذلٍ بما لا يقل أبدًا- بل ربما يزيد- عما يحتاجه عالم الماديات الذي اختُص بالنصيب الأوفر من كلمة «الصناعة» بما تحويه من معاني التجويد والإتقان والتخطيط والمتابعة.

ونحن إذا تدبرنا القرآن الكريم، وجدناه يستخدم في دقة بالغة كلمةَ «الصناعة» في العالَميْن، عالم الأفكار والقيم والمفاهيم، وعالم الأشياء والمادة والخَلق الذي تتجلىٰ فيه بدائع القدرة الإلهية.

ففي المقام الأول، يخاطب ربنا سبحانه وتعالىٰ نبيه موسىٰ عليه السلام ممتنًا عليه، ومذكِّرًا إياه بنعمه واصطفائه، بقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ٣٩﴾

(طه) وقوله: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ (طه). فنحن هنا أمام حديث قرآني عن «صناعة» للإنسان، مع ملاحظة أن تلك «الصناعة» لم ترد عند الحديث عن الإنسان، مجرد الإنسان، بل وردت فقط عند الحديث عن واحد من أولي العزم من الرسل والأنبياء، وهم الذين جعلهم الله سبحانه «النموذج الكامل» للإنسانية.. مما يدل علىٰ ارتباط «الصناعة» بالإنسانية في أفضل صورها وأجلِّ صفاتها.

أما المقام الثاني، وهو عالم الخَلق والإبداع مما نشاهده كل لحظة، وننعم بخيراته وظلاله في نعم الله التي لا تعد ولا تحصىٰ، فقد وردت فيه آيات كثيرة مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ۝٨٨﴾ (النمل) وقوله تعالىٰ مخاطبًا نبيه نوحًا عليه السلام: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ۝٣٧﴾ (هود).

ولا شك أن وُرود كلمة «صناعة» في معرض الامتنان ومخاطبة نبي كريم من أنبياء الله، وأيضًا عند الحديث عن آثار قدرة الله سبحانه في الكون، هو أمر له دلالته ومغزاه مما يحتاج لوقفة مفصلة ليس هذا موضعها، فقد أردت مجرد الإشارة إلىٰ ارتباط لفظة «الصناعة» بعالم الأفكار والقيم والمفاهيم تمامًا كما ترتبط بعالم الأشياء والمادة والخَلق.

ونحن في هذا الظرف الدقيق من تاريخنا، ومحاولات استئناف الشهود الحضاري، واستعادة الفاعلية لأمتنا صاحبة الرسالة الخاتمة، وأمام تلك التحديات المتراكمة التي تواجهنا، لا نحتاج فحسب إلىٰ الأمل، بل إلىٰ أن يتحول الأمل - مع مجموعة أخرىٰ من القيم والمفاهيم والأفكار - إلىٰ «صناعة» راسخة وعميقة في حياتنا وتصوراتنا وسلوكياتنا، علىٰ مستوىٰ الفرد والمجتمع والأمة، بحيث نستطيع الصمود أمام العقبات ونتخطاها، وبحيث نصنع من المحن مِنَحًا، ومن الألم أملًا، ومن دواعي التثبيط والهزيمة والتخذيل أسبابًا ودوافعَ للبقاء والصمود والنهوض والإبداع، واستئناف دورنا الحضاري والإنساني من جديد..

فـ «الأمل» هو من «الصناعات الثقيلة» المطلوب توافرها لمشروع النهضة، وهو

بمنزلة «القاطرة» التي تجرُّ خلفها هذا الجسد المثخَن بالجراح، وتدفعه دفعًا لليقظة واستئناف المسيرة.

لماذا الأمل؟

إن الإنسان بلا أمل هو ريشة في مهب الريح، لا إرادة له ولا اختيار، يتحول إلىٰ «شيء» ليس له من سبيل إلا ردة الفعل، ينتظر فعل الآخرين حتىٰ يحدد لنفسه ما يمكن أن يتخذه من قرارات، وربما لا يقدر علىٰ اتخاذ أي قرار!

هو - دون الأمل - غير قادر علىٰ أخذ زمام المبادرة، وإثبات الذات، وتلبية طموحات النفس، فضلًا عن تحقيق حاجاتها الضرورية.

وبالتالي، فإن أمةً دون أملٍ راسخ عند أبنائها، هي «قطيع» من البشر، يساق إلىٰ هَلَكَته وحتفه لا يملك دفعًا ولا نصرًا! وهي حينئذ - كما جاء في الحديث الشريف - «غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ» (رواه أحمد).

ولن تتحول الأمة - أي أمة - إلىٰ «غثاء» رغم كثرتها، إلا إذا فقدت فاعليتها، وأصبحت مجموعة أصفار مضافةً إلىٰ أصفار.. وهل ثمة شيء يستطيع أن يشلَّ فاعلية الإنسان مثل أن يحيا بلا أمل!

إن استحضار الأمل «الغائب»، كأنما هو «واقع» تراه العين وتلمسه اليد، واستئناس النفس بالفرج القريب، وبالفجر القادم خلف ظلمات الليل البهيم، هو طوق النجاة لها من تتابع الأزمات، وانسداد الأبواب، وتعقد المشكلات.. وهو كفيل - حين يبعث علىٰ استنفاد الأسباب - بأن يجعل الإنسان من داخله في طمأنينة ورضا وسكينة، وبأن تنفسح ذاته حتىٰ تجد في تلك الطمأنينة والرضا والسكينة عوضًا عن ضنك الحياة وبؤس الواقع.

وهذا الأمل الذي ينبغي علىٰ المسلم أن يستحضره، لا ينبني فقط علىٰ الإمكانات المادية التي يملكها بالفعل أو يتوقع حدوثها بالظن، بل يتأسس بالدرجة الأولىٰ علىٰ الإيمان بالله سبحانه والثقة التامة في قضائه وقدره الذي هو دائمًا - أيًّا كانت صورته الظاهرة - خير للإنسان.

لذلك لم يكن عجيبًا أن تقترن الصفة التي تضاد الأمل، وهي اليأس، بالضلال والكفر، والعياذ بالله، كما جاء في قول الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الحجر) وفي قول نبي الله يعقوب عليه السلام وهو يخاطب أبناءه: ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (يوسف).

وفي المقابل، جاء في السنة النبوية ما يؤكد الارتباط الوثيق بين التحلي بالأمل وإحسان الظن وبين الإيمان بالله والثقة في قدره، ففي الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي» (رواه البخاري ومسلم). وفي بعض الروايات: «فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ» (رواه أحمد وغيره بإسناد صحيح)، وجاء أيضًا: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ» (رواه مسلم). وقد وردت الحكمة: تفاءلوا بالخير، تجدوه.

تاريخنا.. يفيض بالأمل:

قد يحلو للبعض ألا يرىٰ في مسيرة تاريخنا الإسلامي إلا متواليات من النكبات والعدوان والمؤامرات علينا من أعدائنا بشتىٰ الوسائل ومختلف الطرق، بدءًا منذ أن جهر النبي ﷺ في مكة بالدعوة، إلىٰ إسقاط الخلافة الإسلامية في أوائل القرن العشرين سنة 1924م، ذلك الإسقاط الذي يعد الحدث الأبرز والأسوأ في تاريخنا المعاصر.. ليدلل بذلك علىٰ مدىٰ الظلم الذي تعرض له الإسلام، وعلىٰ قسوة التحديات التي عاناها المسلمون.

وقد أتفق مع وجهة النظر هذه، غير أني أستدرك وأقول: إنها لا تمثل إلا نصف الحقيقة علىٰ أحسن الأحوال ، أما النصف الآخر- وربما الأهم- فهو أن أمتنا لم تستسلم أبدًا لتلك المؤامرات والنكبات، ولم ترفع الراية البيضاء قط، ولم تنسَ أنها صاحبة رسالة وإيمان ومبادئ كفيلة بأن تحرك طاقاتها من جديد.. يحدوها في ذلك إيمان وثيق بالله سبحانه، وأمل ثابت لا يتزحزح في وعده ونصره للعاملين.. فهو سبحانه القائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (العنكبوت)، والقائل أيضًا: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (الحشر).

ومن أراد أن يقلب صفحات التاريخ، فليسأل «القرامطة» وما فعلوه سنة 317هـ بانتزاعهم الحجر الأسود ليبقىٰ عندهم اثنتين وعشرين سنة.. أو ليسأل «الصليبيين» وما فعلوه من قتل وتخريب ببيت المقدس سنة 492هـ، حتىٰ غاصت الخيول في الدماء.. أو ليسأل «التتار» حين دمروا بغداد بقيادة السفاح هولاكو سنة 656هـ، وقتلوا خليفة المسلمين وآلاف الرجال والنساء والأطفال، ودمروا الكتب حتىٰ تألف منها جسر في نهر دجلة يمرّ الناس عليه، وتغير لون الماء إلىٰ السواد!

ليسألْ كلَّ هؤلاء وغيرَهم: هل استكان المسلمون لنكبة حلّت بهم؟! هل يئسوا أمام تحدٍّ مهما كانت قسوته وعنفوانه؟! هل عرف قاموسهم الفكري والثقافي والسلوكي معنىٰ «اليأس» يومًا ما؟!

إن نجاح المسلمين في تخطي تلك العقبات، واحدة تلو الأخرىٰ، لهو شاهد صدقٍ علىٰ ما تحلوا به من إيمان بالله، منحَهم الثقة فيما بين أيديهم من منهج سماوي، وفتحَ لهم أبوابًا واسعة من الأمل الدافع للعمل، وليس المفضي إلىٰ التواكل والاستخفاف بالأسباب.

ومن هنا، فتجارب التاريخ تدلنا علىٰ أن أمتنا قد تمرض لكن لا تموت.. وقد تُهزم لكنْ لا تُسحق.. وقد يصيبها ما أصاب الأمم السابقة من الضعف والانكسار، غير أنها تظل الأقدر من غيرها علىٰ حشد الصفوف من جديد، وطيِّ صفحة الهزيمة بسرعة لا نظير لها في تاريخ الأمم والحضارات الأخرىٰ.

الأمل والفاعلية:

إن ترسيخ «صناعة الأمل» بحيث تصبح جزءًا من كيان الفرد والمجتمع والأمة، ينعكس إيجابيًّا علىٰ الأفكار والسلوكيات وجميع مناشط الحياة.. هذا الترسيخ يتطلب تكاتف جهود المفكرين والدعاة والعلماء والتربويين ومناهج التعليم ووسائل الإعلام؛ حتىٰ يمكن إعادة صياغة الإنسان صياغة جديدة فاعلة، بعيدًا عن أجواء الهزيمة المكبِّلة التي حاصرت الأجيال في القرون الأخيرة، وأشاعت ثقافة الفردية والأنانية واليأس والقنوط، والهروب من المسئوليات وتحدي العقبات.

وكما سبق فإن «صناعة الأمل» ترتبط بمجموعة من الأفكار والقيم، التي يتحول الإنسان بها ومعها إلىٰ طاقة فاعلة إيجابية، تصنع التغيير وتتجاوز المثبطات، وتطمح إلىٰ استكشاف المستقبل ولا تقع في إِسَار الواقع، مهما كان ضاغطًا وثقيلًا ومكبلًا ، فضلًا عن قدرة هذا الإنسان حينئذ علىٰ تجاوز الماضي بأخطائه وأحزانه.

* فصناعة الأمل تتأسس عند المسلم أول ما تتأسس، علىٰ الإيمان بالله سبحانه والرضا بقضائه وقدره، فهو سبحانه مالك الكون وما فيه ومَن فيه، وبيده مقاليد كل شيء، لا يشذ صغير أو كبير عن حكمه وسلطانه، كل الأمور تبدأ من عنده وتنتهي إليه، وهي ما بين البداية والنهاية تجري علىٰ قدَره وإرادته ووفق مشيئته وحكمته.

فإذا اعتقد المسلم ذلك اعتقادًا جازمًا، وأدركه إدراكًا لا يخالطه شك ولا ريبة ، فهل يمكن أن يتسرب إليه يأس أو قنوط! وهل يفارقه الأمل لحظة واحدة!

* ومن ثم، فإن «صناعة الأمل » يؤدي التحققُ بها إلىٰ بناء النفس السوية غير المتشائمة اليائسة المحبطة ، وإلىٰ تكوين الشخصية الفاعلة في الحياة، التي تأخذ بزمام المبادرة ولا تستكين.

* و«الأمل» هو الذي يدفع إلىٰ توظيف الإمكانات المتاحة- مهما قلّت- لتخطي العقبات وتجاوز المحن، فلولا الأمل، لما وُجد الدافع الذي يحدو الإنسان علىٰ الطريق، رغم أنه قد يبدأ من الصفر.. فالإمكانات المادية لم تكن أبدًا هي العائق أمام الإنسان صاحب الأمل والإرادة، وكما قيل: لا يَعدَم صاحبُ الغاية وسيلةً. المهم أن يتوافر الإنسانُ صاحب الإرادة القوية، والهدف الواضح، والأمل الثابت، ثم بعد ذلك يبقىٰ إدراك الهدف مسألة وقت لا غير.

* وبإيجاز، نستطيع أن نقول: إن «صناعة الأمل » هي «كلمة السر » في ضمان استمرارية فاعلية الأم ة الإسلامية- بل وأي أمة- وعدم انزلاقها إلىٰ مستنقع «الانتحار الحضاري»، أو الركون والموات.

وإن «صناعة الأمل » يحتاجها الفرد كما تحتاجها الأمة، وهي ضرورية حال الهزيمة لنصحو وننهض، مثلما هي ضرورية حال الانتصار لنحافظ علىٰ مواقعنا، ونصنع مزيدًا من الفرص والنجاحات، ولا نصاب بالغرور والانكماش والجمود.

مَوْلد الأفراد والشعوب وجْهان لِخَلقٍ واحد..

ما أشبه ولادة الشعوب بولادة الأفراد..

فالفرد.. يبدأ نطفةً، فعلقةً، فمضغةً، فعظامًا، فلحمًا يكسو العظام.. ثم تحين لحظة الانفصال عن رحم الأم.. التي هي ذاتها لحظة الاتصال بالعالم الخارجي.

ثم تبدأ مرحلة الطفولة والنمو والإدراك.. ومن بعدها مرحلة الشباب بفتوتها وحيويتها.. ثم تعقبها الشيخوخة، بما تحمل معها من ضعف، وخمول، وارتداد إلىٰ مِثلِ سيرة الإنسان الأولىٰ.

هي إذن مراحل متتابعة ومتفاوتة.. يُسلِم بعضها إلىٰ بعض.. ويُنبئ بعضها عن بعض.

وهكذا حال الشعوب والمجتمعات والدول والحضارات .. من الصعود والهبوط، فيما يسمىٰ «الدورة العضوية» ، وتعبير ابن خلدون مهم هنا، إذ يقول: «الدولة لها أعمارٌ طبيعية كما للأشخاص».

يبدأ الشعب- أي شعب- في «المرحلة الجنينية» يبحث عن عوامل تشكُّله وتخلُّقه وصياغته.. فإذا وجدها وصادفت منه رحِمًا نظيفة من أسباب التحلل والاندثار والإجهاض، أخذت تلك العوامل في التفاعل والنمو تدريجيًّا حتىٰ تشرف علىٰ الاكتمال والفتوة والقوة.. في مرحلة تستمر ما استمر هذا الشعب أو ذاك محافظًا علىٰ عناصر قوته وشبابه، حَذِرًا من الأخطار والتحديات التي تواجهه..

فإذا تمكنت منه عوامل التحلل والتفكك والترف، قضت عليه- تدريجيًّا أيضًا!- حتىٰ يتقهقر في السباق الحضاري، ويجد نفسه في المؤخرة، بعد أن حاز قصب السبق لدورات من الزمن..

لا غرو إذن ، أن يذهب بعض المفكرين إلىٰ أن الشعوب والمجتمعات والحضارات يحكم سيرَها وتطورَها أو تدهورَها، سننٌ وقوانينُ ثابتةٌ، تشبه إلىٰ حد

كبير- قد يصل إلىٰ التطابق الكامل- السننَ والقوانين التي تحكم عالم المادة والأحياء..

لقد بدأ مع الإسلام ميلادُ أمة وحضارة وشعوبٍ لم تكن من قبله شيئًا مذكورًا، ولم يكن لها موطئ قدم علىٰ خريطة العالم، سواء السياسية أم الفكرية أم الحضارية.

لكن بفضل المنهج الرباني الذي غرسه فيها سيد البشر ﷺ، صار لها في العالمين ذِكْرٌ وأثر.. بل وآثار!.. في نقلة نوعية لم يعرف التاريخ لها مثيلًا..

ثم تتابع تاريخ هذه الأمة في موجات متعاقبة من الصعود والهبوط، الرقي والانحطاط، النشاط والخمول.. وكان من فضل الله عليها أنه قد أبقىٰ فيها جذوة الإيمان مشتعلة، تنتظر من ينفخ فيها من رُوحه وعزمه وسعيه، فإذا بالأمة تنتفض من رقدتها، وتفيق من سباتها، كأن «عهدها بالوجود أمس»! وكأنها ما أصابها شيء من زمن الهزيمة!

وها نحن أولاء نشهد- بعد عصور من التراجع الحضاري والسبات العميق- بشائرَ مولد جديد من دورات الزمن، يُرجَىٰ فيها أن تُبعث شعوبنا من مواتها، وأن تحقق ذاتها وفاعليتها، وأن تستعيد دورها واستقلالها الفكري والحضاري.

فلئن أصابها المرض العضال، فإنها- بفضل الله- لا تموت؛ ولئن دبَّ فيها الوهن وتمكَّن، فإنها قادرة بالنور الذي بين يديها (كتاب الله وسنة نبيها) علىٰ أن تجتاز المحن والعقبات.. شريطة أن تطرح اليأس جانبًا، وأن تبدأ في العمل الجاد، فورًا بلا تباطؤ، وأن تدرك أنه إذا كان للفرد حياة واحدة، فإن للشعوب حيوات متعددة متجددة..

وتستطيع تلك الشعوبُ أن تُعيد سِيرتَها الأولىٰ.. متىٰ أرادت.

الأمل في الله نظراتٌ في سورة الضحى

لا تخلو الحياة من أوقات تحيط فيها الهموم بالإنسان من كل جانب، وتتتابع عليه الشدائد حتىٰ لتضيق عليه الأرض بما رحبت.. بل إن نفسه التي بين جنبيه قد تتأبّىٰ عليه..

تلك حقيقة مقررة بالتجربة والمشاهدة.. والتجربةُ والمشاهدة في كثير من الأحايين أصدقُ أنباء من الكتب.

وحينئذ، فإن الإنسان محتاج إلىٰ من يبثُّه شعاعًا من الأمل، ويفتح له بابًا من الرجاء، ويدلّه علىٰ الطاقات الكامنة فيه.. فما أتعس النفس حين يصيبها اليأس والضجر!

وسورة الضحىٰ هي - بحق - لمسة حانية علىٰ القلوب البائسة، وعلىٰ النفوس الحائرة، ودفقة من الأمل تؤكد أن عون الله ورعايته لا يتخلفان عن عباده المؤمنين الصادقين: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (العنكبوت:).

لا تبتئس بما يقولون:

لقد كان نزول القرآن الكريم علىٰ قلب النبي محمد ﷺ، خير معين له علىٰ مواجهة الصعاب التي لا تنفك عنه، والعقبات التي تواجهه أينما راح.. فكانت الآيات تتنزل علىٰ قلبه الطاهر كأنما هي بَلْسَمٌ يمسح عنه عنت المشركين وإيذاءهم.. فهي تشدّ من أزره وتصبّره، وتذكر له مصير أقوام سابقين كذبوا رسلهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر... فلا تحزن يا نبي الله، ولا تبتئس بما يقولون: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الأنعام).

ولهذه الحكمة العظيمة؛ كان القرآن الكريم ينزل مُنجمًا ، حتىٰ يُمدَّ النبيَّ ﷺ

@peikangi.com

بأسباب التأييد والتثبيت مع كل نازلة تحلُّ به ، فقال تعالىٰ يردُّ علىٰ المشركين، لما سألوا مستنكرين نزول القرآن علىٰ فترات متقطعة: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الفرقان).

وكان جبريل عليه السلام قد أبطأ بالوحي علىٰ النبي ﷺ في بداية الرسالة- لسبب اختلفت فيه الروايات- فأصاب النبيَّ ﷺ من ذلك حزنٌ شديد، وساءه أن ينقطع عنه- ولو قليلًا- النورُ الذي يربطه بالملأ الأعلىٰ.

وما إنْ علم كفار مكة بفتور الوحي عن النبي ﷺ؛ حتىٰ انطلقت ألسنتهم بالشائعات: أن محمدًا قلاه ربه، وتخلَّىٰ عنه.. ورأوا في ذلك فرصة ليكثّفوا حملاتهم الدعائية الكاذبة، لعلها تفتُّ في عضد المسلمين، وتصرف عنهم من يفكرون في الدخول في الإسلام..

ولم تكن شائعات الكفار لتحزن النبي ﷺ مثلما أحزنه فتور الوحي.. فقد كان الوحي سلواه في مواجهة المحن، وكما يقول صاحب (الظلال) فإن: «الوحي ولقاء جبريل والاتصال بالله، كانت هي زادَ الرسول ﷺ في مشقة الطريق ، وسُقْياه في هجير الجحود، وَرَوْحَه في لأواء التكذيب. وكان ﷺ يحيا بها في هذه الهاجرة المحرقة، التي يعانيها في النفوس النافرة الشاردة العصية العنيدة ، ويعانيها في المكر والكيد والأذىٰ المصبوب علىٰ الدعوة، وعلىٰ الإيمان، وعلىٰ الهدىٰ من طغاة المشركين.

فلما فتر الوحي ، انقطع عنه الزاد، وانحبس عنه الينبوع، واستوحش قلبه من الحبيب، وبقي للهاجرة وحده، بلا زاد وبلا ري ، وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود. وهو أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه..

عندئذ نزلت هذه السورة .. نزل هذا الفيض من الود ، والحب ، والرحمة ، والإيناس، والقربىٰ، والأمل، والرضا، والطمأنينة، واليقين»[1].

ففي هذه الحال الدائرة بين ترقُّبِ نزول الوحي، وبين الحزن لما يُبث من أقاويل وافتراءات.. نزلت سورة (الضحىٰ) تبدأ بالقسم بالضحىٰ، وبالليل وسكونه وظلامه:

(١) «في ظلال القرآن»، سيد قطب، 6/ 3926.

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ (الضحىٰ) ؛ لتضع بين يدي المسلم صورة متكررة، يألفها الناس ويرونها كل يوم.. فما أجمل نور الضحىٰ وبهاءه بعد ظلمات الليل!.. وما أهدأ الليل إذ يعقب النهار بحركته وصخبه، ويلفُّ الناسَ بسكونه وصمته..

فجاءت الآيات لتقرِّر حقيقة ثابتة راسخة.. واستدلتْ علىٰ ثبوتها ورسوخها ببعض مظاهر الكون، التي يعيشها الناس ويلمسونها..

* فكما يتتابع الليل والنهار في دورات متعاقبة، بحيث لا يدوم أحدهما، كذلك تتتابع أحوال الناس، ولا تدوم علىٰ صورة واحدة.. فهي تدور بين الصحة والمرض، بين الغنىٰ والفقر، بين الرجاء واليأس..

المهم أن يتيقن المسلم أن مع العسر يسرًا، وأن حالاً هو عليه يضجر منه، لن يدوم بإذن الله؛ لأن من رحمة الله أن المحن تحمل في طياتها مِنحًا، وأن النور يُولد من رَحِمِ الظلام والمعاناة.

يقول **ابن عطاء الله السكندري** في حِكَمِه البليغة: «**مَن ظنَّ انفكاكَ قَدَرِه عن لُطفِه، فذلك لِقُصورِ نظرِه**».

في الماضي.. زاد للحاضر

جاءت السورة الكريمة لتذكِّر النبي ﷺ بأحواله السابقة، وكيف أن الله بفضله ومنِّه أبدله خيرًا من معاناته، وعوَّضه أفضل مما فاته.. ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾ (الضحىٰ) .

* لقد كان النبي ﷺ يتيمًا، فَقَدَ أباه وهو مازال جنينًا في بطن أمه، وماتت أمه وله من العمر ست سنين، ثم فقد جده وهو في الثامنة من عمره.. فآواه الله، وأحاطه برعايته وحفظه.

* وكان ضالًّا فهداه الله واصطفاه للنبوة والرسالة.. وهو ﷺ وإنْ لم يسجد لصنم قط قبل بعثته، إلا أن القرآن عبَّر عن حاله بالضلال، إذ إنَّ من معاني الضلال- كما ذكر الإمام محمد عبده في تفسيره- اشتباهَ المآخذ علىٰ النفس، حتىٰ تأخذها الحيرة فيما ينبغي أن تختار.. فالرسول ﷺ نظر حوله قبل البعثة، فعرف فساد دين قومه من

مشركي العرب... ومن ناحية أخرىٰ، كان حوله اليهود والنصارىٰ، وكلاهما أصحاب دين سماوي.. لكنه كان في حيرة من أمرهما أيضًا؛ لأن شيئًا من الشرك كان يشوب عقائدهم، وكثيرٌ من السيئات والجرائم تدنس أعمالهم.

كذلك فهو ﷺ في حيرة من قومه، إذ يراهم في سخافة عقائدهم، وتفرُّقِ كلمتهم، وتفانيهم بسفك الدماء، وتحكّم الأجانب من الفرس والروم فيهم.. فيحتار في كيفية تقويمهم، وما الطريق الذي ينبغي أن يسلكه لإيقاظهم من سباتهم»[1].

* وكان ﷺ فقيرًا لم يرث من والده إلا ناقة وجارية، فأغناه الله بما ربح من التجارة، وبما وهبته له زوجه السيدة خديجة، التي كانت خير رفيق له ومعين في دعوته وجهاده، ضد عنت قومه وتكذيبهم واستهزائهم به وبأصحابه.

فالسورة في هدفها الأسمىٰ، تؤكد للنبي ﷺ أن الذي أيدك بنصره وفضله فيما سبق من شدائد، هو- وهو وحده- الذي سيعينك علىٰ ما نزل بك.. فاطلب العون والمدد منه دون سواه، واستعن به ولا تعجز، ولا تأسَ علىٰ ما فاتك.. فلئن فاتك شيء من حظ الدنيا، فإن الآخرة خير لك من متاعها الزائل، وإن لك عند ربك مقامًا محمودًا، ومنزلةً رفيعةً: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ (الضحىٰ).

* ثم هي تخاطب كل مسلم- من بعد النبي ﷺ- وتقول له: استرجعْ شريط ذكرياتك، وتأملْ في محطات حياتك.. ستجد أنك قد مرَّ بك من قبلُ شدائد، وألمت بك خطوب.. ثم جاء فرج الله القريب دائمًا، فأذهب الغم، وكشف السوء، وأعاد للوجه بسمته، وللقلب سروره، وللنفس راحتها وطمأنينتها.

وأسلوب القرآن في التذكير بالنعم السابقة في الماضي، واعتبارها دليلًا وبشارةً علىٰ زوال الكروب في الحاضر والمستقبل.. قد ورد أيضًا في سورة (الشرح)، التي تكاد تتطابق مع سورة (الضحىٰ) ، في مضمونها، وأهدافها، ولمستها الحانية.

ولا عجب، فالمعنىٰ الواحد في القرآن الكريم قد تتوالىٰ عليه الآيات لتؤكده

(١) «تفسير الفاتحة وجزء عمّ»، ص 109، 110، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، كتاب رقم 162، ط 2007م.

وتوضحه.. تفصِّله في موضع، وتُجْمله في موضع آخر.. حسب ما يمليه السياق، وما يتناسب مع مقام النزول.. وفي كلٍّ عبرةٌ لقوم يتفكرون.

ونحن نلاحظ أن امتنان الله سبحانه على رسوله ﷺ في سورة «الضحى»، إنما ينصبُّ بدرجة أكبر على النعم الحسية (الامتنان بالإيواء من اليُتم، والإغناء من الفقر).. بينما هو في سورة «الشرح» يقوم على التذكير بالنعم المعنوية (الامتنان بشرْح الصدر، ووضْع الوزر، ورفْع الذكر).. وكلاهما من فضل الله ورحمته التي وسعت كل شيء؛ فهو سبحانه جوَّاد كريم، لا يرد سائلًا، ولا يخيب رجاء من التجأ إليه.. بل يعطي السائلين أفضل مما سألوا وأمّلوا.

أمتنا.. والأمل المفقود:

كما يكون مطلوبًا من (الفرد) أن يترسخ عنده اليقين في الله، والأمل في انفراج الأزمات مهما استحكمت- كما تدلنا على ذلك سورة الضحى- وبالتالي يدفعه هذا اليقين والأمل للإقبال على نواميس الله في الكون، والتعاطي معها بفهم ومسئولية وبصيرة.. فإن هذا جدير بأن يكون خُلقًا عامًا في (الأمة) كلها، حتى لا تفقد الثقة في ذاتها وطاقاتها.. وحتى لا تذوب في الثقافات الأخرى، وتفقد شخصيتها واستقلالها وتميّزها.

فمهما تكاثرت المحن على أمتنا، وتوالت عليها الخطوب، وتحزَّب عليها الأعداء من كل حدب وصوب.. يجب أن نعلم علم اليقين أن الله ناصر دينه، ومُعْلٍ كلمته، ومؤيد جنده، وأن هذا الدين سيبلغ ما بلغ الليل والنهار، كما جاء في الحديث الشريف [1].. بشرط أن نُحسن التوكل على الله سبحانه، وأن ندرك حقيقة الرسالة المنوطة بنا، وأن نستوفي شروط الخيرية التي شرفنا الله بها..

فسنن الله في النهوض أو السقوط لا تحابي أحدًا، وشروطه في التمكين لا تنحصر في زمان ولا مكان؛ لأن وعده بالتمكين يسري إلى قيام الساعة، وهو متحقق متى

(١) روى تميم الداري عن النبي ﷺ أنه قال: «ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بَيْتَ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إلا أدخله الله هذا الدين، بِعِزِّ عزيز، أو بِذُلِّ ذليل، عزًا يعز اللهُ به الإسلامَ، وذلاً يذل اللهُ به الكفر»، أخرجه الإمام أحمد، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

صادف جند الله الصادقين العاملين: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ (النور).

إن أمتنا قد تمرض لكن لا تموت.. وقد تُهزم لكن لا تُسحق.. وقد يصيبها ما أصاب الأمم السابقة من الضعف والانكسار، غير أنها تظل الأقدر من غيرها علىٰ حشد الصفوف من جديد، وطيّ صفحة الهزيمة بسرعة لا نظير لها في تاريخ الأمم والحضارات.

* فإلىٰ الغارقين في بحار اليأس والقنوط، المنسحقين أمام بطش الأعداء.. لن ينفعكم إلا الأملُ الموصول بالله، والتوكلُ علىٰ الله حقّ التوكل، والاعتصامُ بحبله المتين، واليقينُ بأن الآخرة خيرٌ من الأولىٰ..

ولكم في رسول الله وسيرته العطرة، أسوة حسنة..

ولسوف يعطيكم ربكم ما ترجون.